دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	ايديولوجيات الأنظمة السياسية المعاصرة
المصدر:	مجلة كلية الشريعة والقانون بأسيوط
الناشر:	جامعة الأزهر - كلية الشريعة والقانون بأسيوط
المؤلف الرئيسي:	عثمان، محمد فتوح محمد
المجلد/العدد:	ع 5
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1987
الصفحات:	136 - 187
رقم MD:	421585
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	العلمانية، النظم السياسية، القانون الدستوري، الليبرالية، الماركسية، النظم الإسلامية، الاحكام السلطانية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/421585

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أيديولوجيات

الأنظمة السياسية المعاصرة

للدكتور

محمد فتوح وحمد عثمان

رئيس قسم القانون العام

لكل نظام دستورى وسياسى فكر مذهبى يدين به ، يؤثر فى فهمه للحرية وفهمه للسلطة ، ولاختصاصات سلطات الدولة .

ولم يعد النظام السياسى لدولة من الدول يعنى بنظام الحكم فيها كما حددة الدستور فحسب ، بل أصبح يعنى أساسا بالتركيب الاجتماعى والاقتصادى للدولة ، سواء فى حالته الراهنة أو فيما سيكون عليه فى المستقبل وفقا لما تستهدفه السلطة الحاكمة . وأصبح بذلك الشكل الدستورى اطارا خارجيا وعاما لتركيب اجتماعى واقتصادى تفرضه أيديولوجيات واتجاهات وفلسفات اجتماعية وسياسية وأقتصادية حتى يمكن فهم الشكل الدستورى فهما صحيحا ، يتضح معه مدى التفاعل بين النصوص الدستورية والاتجاهات التى تسيطر على الجماعة (١) .

أصبحت « الايديولوجية » اليوم لفظا متداولاً يعنى مجموعة الأفكار الأساسية التى تحرك دولة ما أو حزبا معينا أو جماعة سياسية معينة .

---

(١) استاذنا العميد الدكتور /محمد زكى الشاعر : الايديولوجيات وأثرها فى الانظمة السياسة المعاصرة ـ مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٩ ص ٥ .

الدكتور شمران حمادى : العوامل المؤثرة فى النظم السياسية بحث بمجلة العلوم القانونية ـ كلية الحقوق ـ جامعة بغداد المجلد الاول ـ العدد الاول ـ ١٩٦٩ ـ ص ١٢٩ .

فالأيديولوجية فى الدستور انما تعنى « **الفكر المذهبى** » الذى يسيطر على أحكام الدستور •

فالايديولوجية تعنى مجموعة الافكار الاساسية فى الفلسفة السياسية التى استقرت فى دستور ما (٢) •

واذا كانت الدول تصدر فى تنظيمها لأوضاعها الدستورية عن فكرة أساسية معينة ، وعن ايدلوجية خاصة ، فان منها ما يعتنق فلسفة متكاملة تسيطر على جميع نواحى الحياة فيها ، بما فى ذلك اتجاهات التنظيم السياسى •

ولما كانت الايديولوجية تتمثل فى مجموعة الافكار الاساسية التى تسود الجماعة ، فلا يمكن دراستها بوصفها تعبيرا عن المظاهر السياسية فقط ، بل يجب أن تكون هذه الدراسة مستمدة من الارتباط الكامل بين الجوانب السياسية والجوانب الاجتماعية والاقتصادية (٣) •

هذا وسنقسم دراستنا الى مباحث :

المبحث الأول : ما هية الأيديولوجية •

المبحث الثانى : الايديولوجية الليبراليه (التحرريه) •

المبحث الثالث : الأيديولوجية الماركسية •

المبحث الرابع : الأيدلوجية الاسلامية •

---

(٢) أستاذنا الدكتور مصطفى أبو زيد فهمى : النظام الدستورى - منشأة المعارف ١٩٨٤ - ص ١٧٦ •

(٣) استاذنا العميد الدكتور : محمدرمزى الشاعر : الايديولوجيات وأثرها فى الانظمة السياسية المعاصرة - مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٩ ص ٧ •

المبحث الأول

ماهيـــة الأيديولوجية

لقد اكتسب مصطلح « الايدلوجية » ideology أهمية خاصة منذ السنوات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية ، حينما بدأ الصراع بين الانظمة والمذاهب السياسية يفرض نفسه بقـــوة على العـــالم الحديث (٤) .

الا ان تتبع أصول هذا المصطلح ، يكشف ، أن قد ظهر مثله فى ذلك مثل الكثير من مصطلحات العلوم الاجتماعية خلال القرن الثامن عشر فى عهد الفلاسفة وفى هذا الصدد يؤكد بندكس (٥) Bendix أن نشأة العلوم الاجتماعية كما نعرفها اليوم ، قد ارتبطت منذ البدء بظهور ثقافة تسمح بتعدد الافكار والاراء وتنوعها ، وتسمح بوجود اختـــلاف فى المنظورات ووجهات النظـــر .

فالايدلوجية نسق من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) يسعى الى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منظور يوجه وييسط الاختيارات السياسية الاجتماعية للأفراد والجماعات والدول . (٦)

وهذا هو ما يمكن وصفه بالمعنى الحيادى للمصطلح ، اذ أن مثـــل هذا التعريف ليست لديه القدرة على توضيح الدلالات المختلفة والمتنوعة

---

(٤) دكتور محمد على محمد : أصول الاجتماع السياسى ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٨٠ ـ ص ٣٣٩ .

(5) Bendix : Socialogy and idealogy : in, E. Tirakyan, The phenomenon of Socialogy, A.C.C.N.Y. 1971 — p. 174.

(٦) دكتور محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتمـــاع ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ـ ص ٢٣٤ .

التى اكتسبها من الانساق الفكرية العديدة التى عملت على اظهار مدى التوازن بين الجانبين الواقعى والاخلاقى اللذين يمثلان مقومات الايدلوجية •

والايدلوجية هى نظام الافكار (المعتقدات، والتقاليد، والمبادىء) التى تؤمن بها جماعة معينة ، أو مجتمع ما وتعكس مصالحها وأهتماماتها الاجتماعية والاخلاقية والدينية واسياسية والاقتصادية وتبررها فى نفس الوقت • وتقوم الايديولوجيات بمهمه التبريرات المنطقية الفلسفية لنماذج السلوك والاتجاهات ، والاهداف وأوضاع الحياة العامة السائدة •

وجدير بالذكر ان ايدلوجية أى شعب تنطوى على تفسير حقائق صادقة ومذاهب ثابتة يعتقدها هذا الشعب وفى اعتقادة انها يمكن ان تتوافق مع كل تغيير فى ظروف هذه الدولة •

شاع أصطلاح « الايدلوجية » فى العالم المعاصر وصار المصطلح يطلق على مدى واسع من الافكار والنظريات والعقائد والمذاهب التى أفرزتها التطورات الاجتماعية والسياسية منذ القرن الماضى كالقومية والاشتراكية والشيوعية والنازية والفاشية والصهيونية والديمقراطية والليبرالية والزنجية والمادية بل انتشر اصطلاح « الايديولوجية الاسلامية » (★) •••

ولئن كانت الايديولوجية كغيرها من الكلمات والمصطلحات الأخرى الشائعة فى العلوم الاجتماعية • تحمل كثيرا من المعانى المختلفة والدلالات المتباينه •

(★) علال الهاشمى الخيارى : الاسلام وايديولوجيات الفكر المعاصر الدار التونسية للنشر ـ ابريل ١٩٨٤ ـ الطبعة الثانية •

فالايديولوجية فى أبسط معانيها عبارة عن « فلسفة اجتماعية وسياسية » بيد أنها لا تقتصر على الجانب النظرى بل تسعى فضلا عن ذلك الى تغيير واعادة تنظيم الواقع الاجتماعى والسياسى — الأمر الذى يعنى ان الايدلوجية لها ابعادها العملية بقدر ما لها من الابعاد النظرية •

واذا جاز القول بأن الفلسفة هى فكر استاتيكى فان الايدلوجية فكر استاتيكى وديناميكى معا ؛ أى ان ما يميز الفلسفة عن الايدلوجية هو ان الفلسفة قوامها التأمل والتفكير والنظر فى بواطن الأمور بينما تعتمد الايدلوجية على تشكيل معتقدات واتجاهات معينة لتكون القوة الدافعة والمحركة للعمل السياسى والاجتماعى • وبمعنى آخر الايدلوجية هى نظرية أو مجموعة مترابطة ومتناغمة من الأفكار والمعتقدات التى توجه المجتمع السياسى وتحدد تشكيله وبنيانه (٧) •

وأصطلاح الايدلوجية اصطلاح حديث نسبيا والموطن الاصلى له هو فرنسا حينما استخدمه المفكر الفرنسى الكونت انطان دوتراس(★) فى مايو سنة ١٧٩٧ فى مؤلف بعنوان

Mémoire sur la Faculté de Sciences

تحدث فيه عن الايدلوجية بمعنى علم الافكار Science of ideas

الذى مزج فيه بين الفكر والاعتبارات العملية مستلهما فى ذلك بين ما ذهب اليه الفيلسوف الانجليزى فرانسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) من أن غاية العلم ليست توسيع نطاق المعرفة البشرية فحسب • ولكن

---

(٧) الدكتور أحمد عباس عبد البديع : الايديولوجية — كلمة حائرة بين الاستحسان والاستعجان بحث بمجلة الموقف العربى العدد ٤٦ ص ٨٨ وما بعدها •

★ Antoine Louis Claude Destutte de Tracy.

أيضا تحسن الحياة البشرية • وهذا التوحيد أو الربط بين الفكر والعمل هو الذى ميز الايديولوجية عند دوتراس عن النظريات والفلسفات ذات الطابع التفسيرى التى كانت سائدة من قبل • وفى هذا الاطـار فان الايدلوجية (أو علم الفكر) كما صورها دوتراس هى العلم الذى يسعى الى غاية عملية وهى خدمة البشرية وانقاذها بتخليص العقل من الاوهام والاحكام المسبقة وتأكيد سيادته على الانسان وعلى مصيره ومقدراته(٨)

وبناء على وجهة النظر هذه من الممكن ا نعتبر نظرية « بيكون » عن الاوهام « الاصنام » (٩) idois الى مدى معين من الدراسات الرائدة فى المفهوم الحديث للايدلوجيا •

---

(٨) احمد عباس عبد البديع : المرجع السابق ص ٨٩ •

(٩) نقتبس الفقرة التالية من كتاب فرنسيس بيكون
— Nouvum Organum —

ص ٣٨١ « ان الاوهام والتصورات الكاذبة التى اشغلت المعرفة البشرية وتغلغلت فيها تغلق عقول الناس بحيث أصبح من الصـــعب جدا الولوج فيها فقط ، ولكن حتى ولو تم تحقيق عملية النقل العقلى فانها ستواجه ايضا تلك الاوهام ، فتقلقنا فى بعث العلوم ، اذا لم تتخـذ الانســانية الحيطة والحذر ضد كل صعوبة قد تنشب منها • توجد الى جانب ذلك « أصنام » أو « أوهام » تنجم عن العلاقات المتبادلة فى المجتمع بين انسان وانسان آخر ، التى ندعوها « أوهام السوق .idds of the Market التى تنشأ من التجارة واجتماع الناس بعضهم مع بعض لان الناس يتحدثون باللغة ، ولكن الكلمات تتكون نتيجة لارادة الاغلبية العظمى فى المجتمع ، وقد ظهر للوجود من سوء استعمال وسوء تكوين الكلمات اعاقة كبرى للعقل

وليســت المعرفة البشرية موضــوعية خالية من كل الوان التحيز والتغرض بل انها تشبه محلولا من الارادة والانفعـــات والمشاعر ، التى تخلق نظاميا لان الانسان يؤمن بسهولة اكثر بالامور التى يفضـــلها بيكون ص ٣٩٣ » •

ومع انه لا يمكن الادعاء بوجود علاقة فعلية وواقعية بين«الأوهام» والمفهوم الحديث للايدلوجيا يمكن تعقب جذورها فى تاريخ الفكر •

من المحتمل جدا ان تكون خبرة الحياة اليومية بالشئون السياسية قد جعلت أولا الانسان واعيا ويقظا بما يدور فى محيطه من تيـــارات سياسية ومن ثم خلقت فيه القـــدرة على نقد العنصر الايديولوجى فى تفكيره •

ففى عصر النهضة فى أوربا ظهـــر بين المواطنين الذين عاصرهم « ميكافيللى » مبدأ مأثور يسترعى اهتمام الناس لملاحظة طبيعة العصر ملاحظة مشتركة ذلك المبدأ القائل •

« ان ما يفكر فيه بلاط الحاكم شىء وما يفكر فيه الناس فى الساحات العامة شىء آخر »

ويشير هذا المبدأ كما يرى مانهايم (١٠) Mannheim الى مدى النجاح الذى احرزته العامة فى معرفة السياسة والتغلغـــل فى اسرارها ان اختلاف التفكير بين الناس ، حتى فى هـــذه المرحلة ، يعزى لعـــامل يمكن ان يدعى ، دون التجنى غير اللائق على الاصطلاح ـــ بأنه العامل الاجتماعى ، جعل ميكافيللى بعقلانيته التى لا ترحم من واجبه ان يربط بين لاختلافات فى آراء الناس ووجوه نظرهم وبين الاختلافات الناجمة عن مصالحهم •

فاصطلاح ايدلوجيا مركب من مقطعين هما :

١ ـــ idea ومعناها فكرة •

٢ ـــ Loges ومعناها علم •

---

10 — Tarl Mannheim : ideology and utopia London 1960 p. 136

أى ان الايدلوجيا هو علم الافكار ، ويراد بها ذلك العلم الذى يدرس الافكار من حيث نشأتها واشكالها وقوانينها • الا انهـا كانت تستخدم فى البداية للدلالة على كل فلسـفة من الفلسـفات المضـادة للميتافيزيقيا واللاهوت (١١) والمعروف ان لفظه ايديولوجيا ، هى من صنع مدرسه فلسفية تجريبيه حسية ، مع ميل الى المادية ، كان لها شأن كبير ونفوذ بالغ فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر • وأوائل القرن التاسع عشر •

وفى رأى أصحاب هذه المدرسـة ومنهم الكونت انطوان ريستوت دوتراس (١٧٥٤ — ١٨٣٦) يوجد علم للمعانى أو للمفاهيم المجردة ، يدرس نشوءها ويستطيع ان يعيد تركيبها كاملة بدءا من الاحساسات

كتب دوتراس فى نهاية القرن الثـامن عشر قائـلا : (١٢) « ان اللاهوت هو فلسفة طفولة العالم • وقد آن الأوان ليخلى السـاحة لسن رشدة • انه من وضع الخيال •• فى حين تقوم الفلسفة الاخرى — الايدلوجيا — على الملاحظة والتجربة » •

ولمصطلح الايديولوجيا أصل ثورى (١٣) ، فقد ارتبط بالفيلسوف الفرنسى دوتراس ابان فترة الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ والفترة التى تلتها مباشرة ، ثم ما لبث أن كتب لهذا المصطلح الشيوع والانتشار بين الدارسين الفرنسيين ابان القرن التاسع عشر •

---

11 — Plamenatz ; J: Ideology — pall Mall press Ltd., London — 1970 — p. 5.

(١٢) الدكتور سمير أيوب : تأثير الايدلوجيا — معهد الانماء العربى — بيروت — الطبعة الاولى ١٩٨٣ — ص ٢٨ •

13— ganguli B.N. : Nature and significance of idealogy. Sociological. Bulletin, india — Vol. 22 — 17 March 1973 — p. 11.

وقد ورد أصطلاح « الايديولوجيا » أول ما ورد فى كتاب دوتراس الذى عنوانه : (١٤)

« مذكرة حول ملكه التفكير »

Mémoire sur la «Faculté de penser»

فى نهاية القرن الثامن عشر ، حينما كان الفلاسفة يفكرون مليا فى أصل الأفكار وجرت محاولات لاستقصاء العلاقات بين الافكار ولاكتشاف مصدر هذه العلاقات فى الجسم البشرى وعملياته الفسيولوجية • ومنذ ذلك الحين ، صار يفترض بأن العقل يعتمد على المادة المفهومة هنا بمعنى الطبيعة •

وفى هذا التقليد تعبر الايدلوجيا عن أعتماد العقل على العمليات المادية الاساسية • ولهذا يعرف هذا التقليد بالمادية الفسيولوجية» (١٥)

ثم كرس دوتراس استعمال مصطلح الايديولوجيا فى كتابه الآخر :

مشروع عناصر الايدلوجيا (١٨٠١)

ويعنى هذا الاصطلاح عند دوتراس :

العلم الذى يدرس الأفكار • بالمعنى الواسع لكلمة أفكار ، أى مجمل واقعات الوعى من حيث صفاتها وقوانينها وعلاقتها بالعلوم التى تمثلها لاسيما أصلها » (١٦) •

---

(14) A.L. Destutte de Tracy : Mémoire sur la Faculté de penser — Mémoires de l'institut National des Sciences et des Arts pour l'an IV de la République. Tom 1 — Paris — p. 324

وسوف نذكر هذا المرجع باللغة العربية فيما بعد بعنوان :

دوتراس : مذكرة حول ملكة التفكير •

(١٥) دكتور بسام الطنبى : الخلفية الاجتماعية للايدلوجيات فى الشرق العربى ـ قضايا عربية ـ بيروت أغسطس ١٩٨٠ ـ ص ٣١ •

(١٦) دوتراس : مذكرة حول ملكة التفكير السابق الاشارة اليها •

ويقول دوتراس (١٧) :

يمكن أن ندعو العلم ايديولوجيا اذا كان الباحث يهتم بالموضوع ، بالمنهج العام ، يهتم بالطرائق فقط ، والمنطق أو بالهدف أو الغرض . ومهما تكن التسمية فأنها من الضرورى ان تتضمن هذه الاقسام الفرعية الثلاثة . لانه لا يمكن البحث فى احداها دون الاخذ بنظر الاعتبار القسمين الآخرين . ويبدو لى بان الايديولوجى اصطلاح شامل عام لان علم الافكار يشمل التعبير عن الافكار ومشتقاتها .

فاتجاه دوتراس كان ان الايديولوجيا علما للمعانى والافكار يدرس نشوءها وتاريخ تطورها . بدءا من الاحساسات الاولية التى أهتم بها عصرة خاصة « **جون لوك** » . والتى طورها الفليسوف الفرنسى **كوندياك** وهو أشهر فليسوف فرنسى يعبر عن الاتجاه الحسى أصدق تعبير ، اذ أنه تربى فى احضان الفكر الانجليزى التجريبى . حيث أكدت المدرسة الانجليزية ذلك المبدأ التجريبى القديم القائل :

« لا شىء فى العقل ما لم يكن من قبل ذلك فى الحس »

ولم تكن تلك الصياغات وقفا على القضايا المعرفيه فقط . بل جاوزتها الى الأمور السياسية أيضا . فوقفت بذلك وراء قادة الثورة الفرنسية واستعمل اولئك القادة افكار مدرسة الايديولوجيا ، كسلاح

---

(١٧) اعتمادا على مؤلف مانهايم Mannheim المرجع السابق هامش ١ ص ١٤٧ .

لا يستغنى عنه فى الصراع ضد العقائد السياسية والمسيحية المتسلطة التى أعتمد عليها النظام السابق على الثورة الفرنسية •

وفى الواقع ان حكومة الثورة قد « قصرت اعترافها على هـــذه الفلسفة • وكان الفـــلاسفة الايديولوجيـــون الوحيـــدين المعترف بهـــم » (١٨) •

وقد اكتسب مصطلح الايديولوجيا معانى سلبيه حين اســتخدمه نابليون للسخرية والازدراء من اعضاء جمعية العلـــوم الاخـــلاقية والسياسية الاكاديمية الفرنسية ، وكلهم اصدقاء دوتراس ، والمفكرين الذين عارضوا سلطته الفردية المطلقـــة والذين ترددوا ازاء فتوحاته وغزواته • ولم يشجعوا اتجاهاته العسكرية فأسماهم بالايديولوجيين أى « اللا واقعيين » الذين يعيشون فى ابراج عاجيه ، وقصـــور من الفراغ حيث الاوهام الكاذبة والتأملات الجوفاء • ولهـــذا السبب تشربت الكلمة معنى سيئا وغير لائق ، مثلها كمثل كلمة Doctrinaire (١٩) أى التحيز لمبدأ معين دون أخذ الواقع بنظر الاعتبار •

---

18 — H. Aiken : The Age of ideology. Houghton — Mifflin, U.S.A. 1956 — p. 5.

(١٩) Doctrinaire تعنى بصورة عامة النظريين غير العمليين من الفلاسفة الذين لا يهتمون بوجهة نظر أخرى غير وجهة نظرهم لانهم آمنوا ببعض الافكار وسلموا بصحتها مقدما وتعصـــبوا لها وتعنى بصورة خاصة جماعة من الفلاسفة السياسيين الفرنسيين الذين ظهروا فى بداية القرن التاسع عشر •

(٢٠) جورج طرابيشى : الايديولوجيا : دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧١ ـ ص ١٥ •

أن الشيء الذى كان موضع الازدراء والاحتقار هو صحة الأفكار التى يعتنقها المعارض وثبوت ارائه لانه أتهم بالابتعاد عن الواقع .

واذا كان نابليون هو الذى اعطى الاصطلاح معنى الحلم الطرباوى العاجز عن مواجهة الواقع وعن التأثير فيه ، فاننا لا ستطيع أن نتجاهل ان كراهيته للايديولوجيا تعود الى خوفه منها ومن وظيفة النقد التى يمكن ان تؤديها.ولذا أورد الأستاذ جورج الطرابيشى (٢٠) قول السيدة دى‌ستال نصيرة الايديولوجيين لتصور خوف نابليون من الايديولوجيا باصطلاح مستحدث هو (الايديوفوبيا) وترجمتها الحرفيه (الخوف من الافكار) .

فالايديوفوبيا تعنى ضمنا أن الايديولوجيا ليست ثرثرة فارغة لا طائل تحتها ولا صلة لها بالواقع . وانها على العكس من ذلك ذات تأثير كبير عليه . (٢١)

وما يعنينا من كل ذلك ، هو ان كلمة ايدلوجيا من الكلمات الفرنسية المصدر ، التى استقرت فى مهدها فرنسا بضع عشرات من السنين قبل أن تكتسب الجنسية الألمانية بهجرتها وانتقالها من كتابات « كانط kant» وهيجل وفى المانيا طرأ على معناها الكثير من التغير بحيث استخدمت كى تشير الى عدد متكامل متبد ق من الافكار والمعتقدات أو مجموع السمات والاتجاهات السائدة فى جماعة أو طبقة .

وفى الفلسفة الالمانية ، قد تطلق كلمة الايدلوجيا على ما يسميه

---

(٢١) دكتور سمير أيوب : تأثيرات الايدلوجيا - المرجع السابق ص ٣٠ .

« مانهايم » أو الادراك الكونى Weltarschaung الذى يتعلق بالنظرة العالمية World-View وهى نظرة كلية نستطيع بمقتضاها وفى ضوئها بأن نتعرف على « انماط التفكير السائدة فى الواقع الاجتماعى والسياسى » • وتلك هى النظرة الايدلوجية العامة (٢٢) •

واذا كان القرن السابع عشر هو « عصر العقل » age of Reason

فلقد مرت اوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بعصر الايدلوجيات Age of ideologies حين تدفقت النظريات المتتابعة لتدرس « طبيعة الانسان » وموقفه من المجتمع كما شهدت تلم القرون الأخيرة ثورات سياسية عارمة أطاحت بنظم اقتصادية وتهدمت قلاع العصور الوسطى ، فتغير البناء الاوربى وحل المجتمع الصناعى بازدهار البورجوازية واندحار الاقطاع (٢٣) •

وكانت الايديولوجية البورجوازية الناشئة هى ايديولوجية ثورية ووطنية تدعو الى المساواة المطلقة والاعتراف بحقوق الانسان كما كانت

---

22 — Karl-Mannheim : Problem of Social knowledge. L.S. London — p. 184.

23 — Karl-Marx : The poverty of philosophy London — MacMilan — 1985 — p. 15.

ويطلق ماركس على الايدلوجية مصطلح الوعى الزائف

False — Consciconess

وهذا الوعى الزائف مشروط بالظروف الاجتماعية أو الوجود الاجتماعى • ومصطلح الوعى عنده مصطلح شامل يستخدم عادة للاشارة الى كافة الاحساسات والافكار والمعتقدات التى يكونها البشر حول موضوعات مادية ملموسة والايدلوجية هى جزء فقط من الوعى بالوجود الاجتماعى ، هى الوعى غير الحقيقى ، الوعى الكاذب بهذا الوجود

ايديولوجية العصر فى تلك الفترة هى ذلك الاطار الفكرى المنسق الذى يدور حول حياة الانسان ومجتمعه وحضارته • (٢٤)

وفى غضون القرن التاسع عشر شاع استعمال الايديولوجيا بمعنى يحمل طابع وخصائص المكانة التى يشغلها رجال السياسة ، ووجهة النظر لاولئك الذين بحثوا الاصطلاح • تضفى الكلمة الجديدة صفة الشرعية والقانونية على خبرة السياسى الخاصة بالواقع •وتقدم العون لتلك اللا عقلانية العلمية التى لم تكن تعترف بالفكر اداة لادراك الواقع والاحاطة به •

وبهذا يعنى أن الاحساس السياسى وشعوره بالواقع قد نال الأولوية والاسبقية على أساليب التفكير وطرائق الحياة التأملية المنعزلة المدرسية•

الاجتماعى والاقتصادى والايديولوجية هى افكار مضللة واوهام ليس لها وجود حقيقى ، كما انها تقف فى مواجهة النظريات العلمية • وقد كتب ماركس وانجلز عن الايدلوجية بوصفها تمثل نوعا من الوعى بالواقع •• يظهر فيه الناس وظروفهم المحيطة فى أوضاع معكوسة كما لو كانوا فى حجرة مظلمة وجدير بالذكر ان الانساق الفكرية قد تكون قواعد تحكم السلوك الاجتماعى والاخلاقى ، أو تنظم البناء السياسى والقانونى أو تكون بمثابة نظريات تحدد أحكامنا وتقديرنا للمواقف أو قضايا تفسر البناء الاجتماعى بصفة عامة » •

أنظر فى ذلك :

الدكتور محمد على محمد : أصول الاجتماع السياسى ١٩٨٠ دار المعرفة ـ هامش ١ ـ ص ٣٤٠ •

الدكتور عاطف غيث : القاموس علم الاجتماع • الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩ ـ ص ٢٣٤ •

(٢٤) الدكتور قبارى محمد اسماعيل : المرجع السابق ص ٢٠ •

ولقد أحدث المضمون الجديد الذى دخل فى كلمة « الايديولوجيا » بسبب اعادة تعريفها من قبل السياسى على ضوء خبراته ، رده حاسمه فى صوغ المشكلة الخاصة بطبيعة الواقع • فان كنا نرغب أن نرتفع الى مستوى المسئولية التى القيت على كواهلنا نتيجة للحاجة الماسة التى تدعو لتحليل الفكر الحديث ، يجب علينا ان نأخذ بالفكرة القائلة بأن التاريخ الاجتماعى للافكار يكرس نفسه لدراسة الفكر الواقعى للمجتمع (٢٥) •

فالايدلوجيا هى منظومة من الافكار ويضيف قاموس وبستر الانجليزى ان تلك المنظومة من الافكار تعنى « بالمظواهر ، خاصة تلك التى تتعلق بالحياة الاجتماعية ، وباسلوب التفكير الذى يميز الفرد أو الطبقة » •

وينتقد Henry D. Aiken هذا التعريف ويقول ان فيه خلط (٢٦)

فالقسم الاول من التعريف يوحى بأن الايدلوجية نظرية عن الظواهر الاجتماعية بشكل خاص وبالتالى يميل الى اقناع العقل بأنها قضايا موضوعية تصف شيئا موجودا فى هذا العالم •

أما القسم الثانى من التعريف فلا يوحى بأن الايدلوجية نظرية وانما اسلوب للتفكير أو نسق من المواقف وبذلك تتسم بالذاتية وتعبر عن الاسلوب الذى ينظر به الفرد أو الجماعة الى الواقع •

---

25 — Mannhiem : idealogy and utopia — op. cit. — p. 148.
26 — Henry D. Aiken : The Age of ideology (The 19th Century philosophers) New York 1956 — p. 14.

ويذهب الفقيه Karl - Loewenstein الى أن الايدلوجيـــة السياسية هى « نظام متسق من الافكار والمعتقـــدات يفسر موقف الانسان من المجتمع ويؤدى الى اعتماد نسق من السلوك يجسم تلك الافكار والمعتقدات ويتفق معها » (٢٧) •

هذا ويختلف تعريف هذا الفقيه Karl عن التعريف الســابق فيبدو أن فى أن Aiken ابرز الجانب السلوكى وركز على عامل الفعل الذى يقوم به الانسان تجسيدا لما يؤمن به من افكـــار ومعتقـــدات •

ويذهب الفقيه الأمريكى المســلم Moustafa Rejai الى أنه يجب أن يرتب الأولويات الواجب الأخذ بها عند بحث ماهيه الايدلوجية فيقول : « انه من الناحية الواقعية يجب النظر الى الايدلوجية عـــلى أنها تشتمل على معتقدات فى المرتبة الأولى ، وعلى أفكار فى المرتبـــة الثانية • ان التمييز الأساسى بينهما هو أن الأفكار يمكن أن تخضـــع للبحث العلمى « مثل الاختيار والتحقق من مدى صحتها » وليس كذلك العقـــائد » (٢٨) •

ولمفهوم الايدلوجية أبعاد خمسة هى :

١ ــ البعد الادراكى : المعرفة والعقيدة •

٢ ــ البعد الاثارى : المشاعر والعواطف •

---

27 — Karl loewenstein : L'influence des idologies sur les changements politiques. Bulletin international des sciences sociaeles — 1953 — p. 55.

عن الدكتور محمد محمود ربيع : الايدلوجيات السياسية المعاصرة ــ المرجع السابق ص ١٥ •

28 — Moustafa Rejai : Decline of ideology. Chicago — New York 1971.

٣ ـ البعد التقييمى : المعايير والقيم •

٤ ـ البعد المنهجى : الخطط والبرامج •

٥ ـ البعد الاجتماعى : التنظيمات والجماعات المشاركة •

ويميز الفقيه Roy C. Cacridis (٢٩) بين الأيديولوجيات المختلفة عن طريق التمييز بين أربعة أوجه يعتبرهما هامة بالنسبة لكل منها وهى :

١ ـ مصادرها التى استقيت منها •

٢ ـ وظائفها وخاصة تلك المتعلقة بمدى سيطرتها •

٣ ـ شرعيتها وانتشارها •

٤ ـ علاقتها بتنظيم السلطة السياسية •

ومما لا شك فيه أن مثل تلك المقارنات تفيد فى التعرف على ماهية كل ايدلوجية من الايديولوجيات •

ويمكننا فهم معانى الايدلوجية اذا أدخلنا فى اعتبارنا أن للبشر معتقدات حول ما يمكن اعتباره حقائق وقيم •

ولا يمكن تسمية المعتقدات التى تقتصر على الواقع بالايديولوجية وهو ما يعنى أن الايدلوجية لا يمكن أن تكون وصفية خالصة • ويجب أن يشتمل البناء الفكرى على معتقدات تدور حول قيم حتى يمكن القول بوجود ايديولوجية وهو ما يعنى كما يرى Vernon Van Dyke

---

29 — Roy C. Macridis : The study of comprative government New York 1954 — p. 12.

أن الايديولوجيات معيارية دائما — على الأقل فى جانب منها — أى أنها تعكس أو توحى بمفاهيم حول « ما يجب أن يكون » (٣٠) .

ويبدو أن الاستخدام الفنى لمصطلح الايديولوجية يميل الى اعتبار الايديولوجية محصلة عدة عناصر ، فهى لا تدل فقط على المعتقدات التى توجد لدى الناس ، أو نسق القيم ، أو محصلة الأهداف والمعايير وانما تتضمن كل هذه الجوانب مجتمعة ، هذا بالاضافة الى نظرة الانسان للأشياء المحيطة به ، والتصور الذى يتصوره عن العالم ، وهى فى نفس الوقت تشير الى مجموعة الخبرات والأفكار والآراء التى يستند اليها فى تقييمه للظواهر المحيطة به .

ومن المعالجات الهامة لمصطلح الايديولوجيا ماعرضه كارل مانهايم Karle Mannheim (٣٢) فى كتابه الايديولوجية واليوتوبيا « المدينة الفاضلة أو ما يطلق عليها الطوبائية »

ويمكننا أن نطلق اصطلاح الايديولوجية (٣٣) على أية مجموعة

---

30 — **Vernon Van Dyke** : Political Science (A philosophical Analysis) London 1960 — p. 172.

(٣١) دكتور عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع — الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ص ٢٣٥ .

32 — **Karl Mannheim** : Ideology and utopia — First pub. 1936 — London 1960.

33 — **Burdeau** : Droit Constitutionnel et institutions publiques — Dix Huitième édition L.G.D.J. 1977 — p. 41.
L'idéologie est un système d'idées et de jugements, lie généralement une interprétation de l'histoire, par lequel un groupe social s'explique sa situation et d'où il dégage les valeurs qui doivent déterminer l'orientation de son action.

من المعتقدات تدور حول « ما يجب أن يكون » بشرط أن تكـــون تلك المعتقدات متماسكة ومترابطة منطقيا ، وبالتالى فانه يمكن اطلاق هذا الاصطلاح على أى بناء فكرى ذو صفة معيارية •

هذا ويرتبط الايمان بمجموعة من القيم عادة بالاستعداد لتقبـل بعض فروض وصفية ذات طابع نسبى •

والدساتير تعبر عن الايديولوجية قبل أن تكون تنظيما للســلطة والحرية بل أن أستاذنا العميد الدكتور محمد رمزى طه الشاعر (٣٤)، يوضح أوضح تأثير للايديولوجية فى الدستور حين يقدر أن معــه من المستحيل أن تفسر نصوص الدستور بغير الرجــوع الى مبـــادىء الايديولوجية التى صدر فى ظلها من ذلك نص المــادة (٣٦) من دستور جمهورية الصين الشعبية الصادر فى ٤ أكتوبر ســنة ١٩٨٢ التى تنص على أن (٣٥) :

« لمواطنى جمهورية الصين الشعبية حرية الاعتقاد الدينى

لا يحق لأى من أجهزة الدولة أو المنظمات الاجتماعية أو الأفراد ارغام أى مواطن على الاعتقاد بأن دين أو عدم الاعتقاد به » •

---

(٣٤) أستاذنا العميد الدكتور محمد رمزى الشاعر : الايديولوجيات وأثرها فى الانظمة السياسية المعاصر ـ مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٩

35 — The Constitution of the people's Republic of china — 1982 : Art 36 citizens of china enjoy. enjoy freedom of religious belief. No state organ, public or- ganization or indivdual may compel citizens to beiieve in, or not to belieze n, any religion.

ونفس المعنى ورد فى الدستور الاشتراكى لجمهـــورية كـــوريا الديمقراطية الصادر فى ٢٧ ديســمبر ١٩٧٢ فى المــادة ٥٤ التى تنص على أن : « للمواطنين حرية تعبد الدين وحرية الدعاية ضد الدين » •

ونفس المعنى ورد فى دستور الاتحاد السوفيتى الصـــادر فى ٧ أكتوبر ١٩٧٧ فى المــادة ٥٢ الذى نص على أن : « لمواطنى الاتحـــاد السوفيتى حرية الاعتقاد أى الحق فى اعتناق أى دين أو عدم اعتنـــاق أى دين أو القيام بالدعاية الالحادية » •

فهذه النصوص تبدو للوهلة الأولى متناقضة وغامضة ، اذ كيف يسمح الدستور بحرية العقيدة فى نفس الوقت الذى يحارب فيه الدين • ولكن هذا الغموض يتلاشى اذا رجع فى تفسير النص للايديولوجية التى يقوم عليها المذهب المــاركسى الملحد الذى لا يؤمن بالأديان •

وقد كان اصطلاح الايديولوجية يقصد به فى عهد نابليون التعبير

عن التحليل الأجوف العقيم ، بقصد السخرية من رجال الايديولوجية كما سبق ن أوضحنا ، الا أن النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد شهد اعادة الحياة اليه وأصبح اصطلاحا متداولا فى الوقت الحاضر •

ويقول أستاذنا العميد الدكتور رمزى الشـــــاعر : يقصـــد بالايديولوجية مجموعة من المعتقدات والأفكار التى تميـل بالدولة الى قبول اصطلاحات معينة ورفض اصطلاحات أخرى • وبمعنى آخـــر يقصد به مجموعة من الأفكار الأساسية التى تنبثق من العقائد والقيم المتصلة بتراث حضارى معين ، لتصور بصـفة شاملة ما هـــو كائن

وما سيكون ، وترسم بذلك اطار حركة الجماعة السياسية وتحدد لهـا معـــالم أهدافها •

وبذلك تمد الايديولوجية الجماعة بالحركة والديناميكية لتمكنها من تحقيق ما سيكون ، كما أنها سند لتبرير ما هو كائن » •

واذا كانت الدول تصدر فى تنظيمها لأوضاعها الدســـتورية عن فكرة أساسية معينة ، وعن ايديولوجية خاصة ، فان منها ما يعتنـــق فلسفة متكاملة تسيطر على جميع نواحى الحياة فيها ، ومنها ما تقـوم أنظمته السياسية نتيجة لظروفه الاجتماعية والاقتصادية والبيئيـــة والسياسية دون اتباع لفلسفة متكاملة (٣٦) •

ولمـا كانت الايديولوجية تتمثل فى مجموعة الأفكار الأساســية التى تسود الجماعة ، فلا يمكن دراستها بوصفها تعبيرا عن المظـــاهر السياسية فقط ، بل يجب أن تكون هذه الدراسة مستمدة من الارتباط الكامل بين الجوانب السياسية والجوانب الاجتماعية والاقتصادية •

فالايديولوجية هى محاولة ربط الفكر بالواقع ووصل العقل بالحياة ودمج المنطق بالوجود الاجتماعى •

---

36 — **Burdeau : Droit Constitutionnel** op. cit — p. 41

«Les idéologies diffèrent aussi par la place qu'elles font aux connaissances véritables et aux croyances indémontrables toutes les idéologies sont des forces sociales génératrices.

وربط الفكر بالتاريخ ، ودمج الماضى بالحاضر ، ووصل المقومات السابقة بالواقع الراهن .

فالفقهاء ينظرون الى الايديولوجيات على أنها وقائع Facts ينبغى دراسة ماضيها ونشأتها وتطورها ، ثم محاولة تقنين القوانين التى تتحكم فى مسارها ، على اعتبار أن الايديولوجيات هى ظواهر خاضعة للشروط الاجتماعية بمعنى أنها مشروطة اجتماعيا Socially Conditioned وبالاضافة الى ذلك فان تلك الايديولوجيات انما تتباين وتتصارع ، حين تتداخل فى البناءات والتنظيمات فتؤدى الى الصراع بين الأفكار conflict of idea حين تعتبر الأفكار كأسلحة ideas as Weapons

ويمكننا فى ضوء ما سبق أن نقول أن الايديولوجيا هى الاطار الفكرى المنسق الذى يدور حول حياة الانسان ومجتمعه وثقافته كما أنها تطلق لتعنى الاشارة الى مجموع المعتقدات والنظريات التى تحدد لنا مضامين الفكر وتستند الى التركيز على أنماط السلوك السائدة فى المجتمع طبقا للقانون مع ارتباطها بالجوانب السياسية والجوانب الاجتماعية والاقتصادية (٣٧) .

والفقيه الفرنسى A. Hourious (٣٨) ويقول أن الأيديولوجيات

---

37 — Burdeau : Droit Constitutionnel — op. cit. p. 42. «L'idéologie est une idée de droit dont le pouvoir fait une orthodoxie.

38 — A. Haurion Droit Const. et institutions politiques ed. Montchrestien 1972 p. 38 «idéologies nombreuses, avec des variantes propres à chaque pays.

نزعات وهى متعددة مع متغيرات خصوصية ملازمة لكل بلد .

وباستقراء الايديولوجيات فى العالم المعاصر نجـــد فيـه ثلاثة ايديولوجيات بارزة هى :

١ ــ الايديولوجية الليبرالية .

٢ ــ الايدلوجية الماركسية .

٣ ــ الايديولوجية الاسلامية .

المبحث الثانى

الايديولوجية الليبرالية (التحررية)

الليبرالية فلسفة متعددة الجـــوانب والأسس ، وهى تعـــد ايديولوجية الديمقراطيات الغربية لأنه فى نهاية الأمر تراثهـــا الروحى والفـــكرى •

والليبرالية اصطلاح تعنى مجموعة من الأفكار والقيم التى تدور حول الفرد وحريته ورفاهيته ، وتنكر الليبرالية أن تكون الســـلطة أو الحكومة غاية فى ذاتها ، وانما هى مجرد وسيلة لتحقيـــق ازدهار الفـــرد (١) •

فالليبرالية كما يقول جورج سابين (٢) قد بحثت عن أســـاس واضح ومؤكد لنظريتها الفلسفية من المجتمع فما وجدت شيئا كالطبيعة البشرية فى وضوحها وصلابتها ، وهى لذلك قد أعلنت أن الأســـاس الذى يجب أن يبنى عليه مجتمع مستقر ، هو الانسان بمصالحه ورغباته فى السعادة والتقدم ، وفوق ذلك بعقله الذى ظهر أنه الشرط الأساسى لاستخدام ناجح لجميع مكناته الأخرى » •

هذا ولم تظهر الأفكار التى يطلق عليها «الايديولوجية الليبرالية» مرة واحدة ، بل نمت وتطورت شيئا فشيئا مع نمو وتطور الطبقـــة

---

1) **J.H. Hallowell** : The decline of liberalism as an ideology, Kegan poul 1940.

2) **G.H. Sabine** : A History of pulitical Theory — Henry, Halt — New York 1961 — p. 368.

(٣) دكتور عبد الكريم احمد : اسس النظم السياسية • مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧١ ص ١٤٣ •

الرأسمالية التى اتخذت من هذه الايديولوجية الليبرالية فلسفة لها » (٣) • ولا تنسب « الليبرالية » الى مفكر معين ولكن صاغها مفكرون عديدون نهلوا من مصادر فكرية وبيئات متباينة ومتمايزة (٤)•

ووجد أن اصطلاح الليبرالية أخذ فى الذيوع والانتشار فعندما تكون حزب أطلق عليه « الحزب الليبرالى » les libérales party فى أسبانيا عام ١٨١٠ اعتنق أعضاءه المبادىء الدستورية الانجليزية التى كانت معاصرة لهذا التاريخ •

ويقصد بالليبرالية أنصار النظام البرلمانى وحرية الفكر وحرية التجارة وحرية الملكية الخاصة • وقد أطلق وصف الدولة الليبرالية على التنظيم السياسى الذى يتبنى هذه المبادىء ويشيد بنيانه الدستورى على قاعدتها ، وهو البنيان الذى تبلور هيكله فى القرن التاسع عشر ، وقامت فلسفته على الايمان بامكانية تحقيق الرخاء العالمى نتيجة اطلاق القوى الطبيعية ، وتحريرها من القيود والتنظيم تعبيرا عن الثقة فى قدرة الفرد على تحقيق سعادته الخاصة وسعادة مجتمعه فى آن واحد (٥) •

وأحب أن أشير هنا الى أن الحرية الفردية كايديولوجية سياسية هى نتاج للآراء والأفكار التى برزت فى عصر النهضة • وكان التعبير السياسى لهذه الفردية الجديدة اعلانا سياسيا عن الايمان باستقلال

---

(٥) دكتور اكرام بدر الدين : الديمقراطية الليبرالية • دار لجوهرة بيروت ١٩٨٦ ص ٤٥ •

4) G. Burdeau : Droit Constitutionnel et institutions politiques. Dis-Hutième ed. L.G.D.J. 1977 p. 42 : l'idéologie une différence capitale qui tient à la place qu'elles font à l'homme dans la conception des valeurs qu'elles systématisent.

المنطق البشرى وأن الانسان خير ، وكانت هذه الحـــرية الفردية باعتبارها وسيلة حياة ، وحركة فكرية ، انعكاسا للآمال الاقتصادية والدينيـة والاجتماعية والسياسـية للطبقة التجارية التى نشأت فى ذلك الوقت ، وكانت الحرية الفردية على وجه العمـوم هـدفا فى حـد ذاته (٦) .

وقد كان عصر النهضة هو الذى أنتج فكرة الفرد المستقل أو ما سمى الانسان الذى ليس له سيد (٧) Masterless Man

ويشير Sabine الى أن الفلسفة الحـديثة التى آمنت بمذهب الحرية الفردية ارتكزت على الطبيعة البشرية الفردية مدعيـة أنها أقوى وأثبت أساس معتبرة ذلك شيئا طبيعيا self-evident لا يحتاج الى اثبات .

ويضيف سابين الى ذلك أن الفرد individual human being باهتماماته ومصالحه ورغبته فى الوصول الى السعادة واستغلال طاقاته أحسن استغلال ، بدا أنه الأساس الذى يجب أن يرتكز عليه أى مجتمع مستقر ثابت (★) .

ولقد ترتب على اعتبار « الليبرالية » للفرد حجر الزاوية فى الفكر والنظام (٨) .

---

6) Hallowell, J.H., Main currents : in Modern political Thought — 1960 — p. 84.

(٧) دكتور محمود سماعيل محمد : دراسات فى العلوم السياسية مكتبة القاهرة الحديثة ـ بدون تاريخ نشر ـ ص ١٦٠ .

(٨) الدكتور محمد عصـفور : الحرية فى الفكرين الديمقراطى ولاشتراكى ـ الطبعة الاولى لمطبعة لعالمية ١٩٦١ ـ ص ٩ .

* G. Sabin : A History of political Theory — 3rd ed. 1961 — 1961 — p. 432.

نتائج متعـــددة أهمها :

١ ــ أن الفرد أعتبر أسبق من المجتمع وأسمى منه ، ونادى مفكرو « الليبرالية » بأن المجتمع قد صنع للانسان ولم يصنع الانسان للمجتمع ويقول جورج ســابين G. Sabin ان هذه الأسبقية المفترضة للفرد على المجتمع ــ سواء من الناحية المنطقية أو من الناحية الأدبية ــ قد غدت الصفة البارزة لنظرية القانون الطبيعى ، بل وغدت أوضح مايميز النظرية الحديثة عن نظرية القرون الوسطى • ولقد أكد « هــوبز » و « لوك » هذه الظاهرة بصــفة خاصــة والتى غدت عالميا النظــرية الاجتماعية الى وقت قيام الثورة الفرنسية ، واحتفظت بطابعها هــذا الى ما بعد هذا التاريخ ، حتى بعد أن قوض الفيلسوف « هيــوم » أسس نظرية الحقوق الطبيعية (٩) •

٢ ــ ان سمو الفرد على المجتمع يستتبع حتما أن يعتبر الفــرد غاية فى ذاته لا وسيلة ، وقد « كانت عن هذا المعنى فى أقوى صورة فيما اعتبره القانون الأساسى للسلوك البشرى حيث يقول :

« يجب أن تتصرف فى كل حالة فى معاملتك للانسانية ــ ســواء فى شخصك أو بالنسبة للآخرين ــ على أنها غاية فى ذاتها وليس عــلى أساس أنها وسيله أبدا » •

٣ ــ لم ير فقهاء « الليبرالية » أن سمو الفرد على المجتمع ، أو انه غاية فى ذاته ، مجرد أمر من أمور العقيــدة ، وانما هو أمر تؤكده النتائج العلمية ، ولقد كان أخطر هذه النتائج وقتئذ ، ما أكده علمــاء الطبيعة من أن خواص المواد كلها تحددها طبيعة الذرات المستقلة والتى تعتبر وحدات قائمة بذاتها ، وتستمد طبيعتها من ذاتهــا وليس من

---

9 — G. Sabin : A Historyof political Theory — op. cit. 368.

علاقتها بعضها ببعض ، وقد استغل الفقه السياسى هذا التصوير فى تحديد وضع الانسان فى المجتمع وصلاته به حيث نقله من نطاق العلوم الطبيعية الى نطاق الحياة الاجتماعية :

(أ) فنظر الى الفرد (على نحو ما كانت العلوم الطبيعية تنظر الى الذرات) على انه وحدة قائمة بذاتها لا تقبل الانقسام ، وأن ما يحدد طبيعته الحقيقية الجوهر essence (أو بالأحرى العناصر التى لا تقبل الانقسام) لا الوظيفة Function (١٠).

(ب) أعتبر المذهب الليبرالى كل فرد وحدة أدبية قائمة بذاتها وانه بهذا الوصف يمتلك حقوقا أساسية معينة مستمدة من انسانيته. وهذه الحقوق تكفل له أيضا ممارسة موهبته العقلية فى التمييز بين الخير والشر . فالفرد يملك عقلا ذا أصل مقدس قادر على أن يحد من العواطف والانفعالات ويهديه سبيل الخير . وقد عبر « فيختة » عن هذا المعنى بقوله :

« من حق كل فرد أن يحكم لنفسه ما يقدر أنه حد تصرفاته الحرة وأن يدافع بقوة ذاتها عنه » (١١) .

(جـ) أكدت « الليبرالية » فكرة « المساواة القانونية » بين الأفراد، مستندة فى ذلك الى النتائج التى اكتشفتها الأبحاث العلمية فى عصر النهضة ، فلقد أخذ فلاسفة « الليبرالية » بالتصوير الذرى الى أقصى مداه ، حيث نظروا الى الأفراد على أنهم ذرات متماثلة فى صفاتها ولذلك آمنوا بوجوب المساواة بينها فى المعاملة .

Hallowell. The Decline of Liberalism as an idelogy 1946 — 1946 — p. 22.

Hallowell : op. cit cit. — p. 29.

٤ ــ لم يكن تأكيد وجود الفرد مجرد دفاع نظرى عن القيمة الأدبية للانسان ، ولكنه كان أيضا دفاعا عن مصالحه المادية • فلقد كان مفكرو « الليبرالية » متحمسين غاية التحمس فى المعادلة بحرية النشاط الفردى ، ولم يكن الاقتصادى الانجليزى « آدم سميث » هو وحده الذى حمل لواء هذه الدعوة ، وانما شاركه فى ذلك عديدون من مفكرى « الليبرالية » فى الدول الأوربية • • ومن ألمع الأسماء فى الفكر الألمانى فى هذا الشأن « ويلهم فون هومبولدت » Von Humboldt

فلقد دافع بقوة عن تمتع الفرد بأقصى حرية مطلقة لتنمية نفسه عن طريق استخدامه لطاقاته « وطبقا لمدى حاجاته وغرائزه ، ولا يقيده فى هذا الشأن سوى سلطاته وحقوقه ، وقد دافعت الفلسفة بنفس القوة عن هذا المعنى فأعلن « فيخته » مثلا « أن كل ما لا ينتهك حقوق شخص آخر يكون من حق الشخص أن يفعله » (١٢) •

٥ ــ الايمان بنظام « طبيعى » يضم الفرد والدولة

a belief in a Natural order that embraces both the individual and the collectivity (stat) (١٢)

٦ ــ ان هناك نطاقا للحقوق ــ يمتلكها الأفراد بوصفهم آدميين ، توجد الدولة من أجل المحافظة عليه ، وهذه الحقوق كامنة فى الطبيعة البشرية ، ويتجاوز سلطة الدولة المساس بها أو انتهاكها على أى وجه•• غير أنه ينطوى فى فكرة الحقوق الطبيعية فكرة الحرية الطبيعية ، وهى فكرة مؤداها أن الفرد حر من أى قيد يفرضه أفراد آخرون أو تفرضه الدولة •

---

12 — Hollowell : op. cit. p. 29

(١٣) نقلا عن مؤلف الدكتور محمد عصفور ــ الحرية فى الفكرين الديمقراطى والاشتراكى المرجع السابق ص ١٧ •

٧ ــ ضرورة قيام السلطة لحماية نظام الجماعة بشرط أن تتوافر فيها خصائص معينة هى أن تكون سلطة غير شخصية وغير متحكمة .

والايديولوجيــة الليبرالية ترى أن القــانون وحــده ــ بعمومه وتجريده ــ هو الذى تتوافر فيه هذه الخصائص وأن التنظيم الاجتماعى يحققــه على نحو أوفى القانون المجرد وغير الشــخص أكثر ما يحققه الأمر والنهى والاكراه ، وأساس هذا الايمان كرامة الفرد التى توجب أن يحكم بمقتضى قواعد شخصية أكثر مما يحكم بسلطة شخصية ، وأن لا يخضع لارادة مستبدة أو مغرضة .

وقد صدرت « الليبرالية » فى ذلك عن فكرة هامة هى أن مقياس الحرية فى النظام هو ما اذا كان المشرع يخضع أو لا يخضع لحكم هذا القانون الذى يقيد ارادته المتحكمة ، فاذا لم يوجد مثل هــذا التقييد لم توجــد حــرية .

وفى عبارة أخرى أن الحرية كانت تعنى عند « الليبرالية » تحديدا واقعيا concrete وجوهريا substantive مفروضا عــلى الارادة ، ســواء كانت الارادة الفردية للحاكم أو الارادة الجمــاعية للمشــــرع (١٤) .

وقد عبر فولتير عن هذا بقوله : « ان الحرية توجد حيث يكون الشخص مستقلا عن كل شىء فيما عدا القانون »

Freedom exists in being independent from everything but low.

---

(١٤) الدكتور محمد عصــــفور : الحرية فى الفكرين المرجع السابق ص ١٨ .

٨ ــ ان للأفراد حقوقا لا صفة بهم ولدت منهم ولا يمكن للدولة أن تمسها ، بعبارة أخرى •

« ان الدولة ليست وجدها مصدرا للقانون la seule source de droit طالما كانت توجد هناك للأفراد حقوق تعد سابقة على ذلك القانون وأعلى منه مكانا بل وأسبق من ظهور الدولة ونشأتها وأعلى من حقوقها مقاما وأن هدف الدولة انا هو العمل على كفالة المحافظة على تلك الحقوق الفردية Droits individuels (١٥) •

ونخلص مما سبق أن الليبرالية معنى مزدوج (١٦) أحدهما سياسى والآخر اقتصادى •

(أ) المعنى السياسى :

تعنى ذلك النظام الذى يركز على المبادىء الأساسية التى تقوم عليها الديمقراطية عموما وهى :

ــ سيادة الشعب	Souveraineté Populaire
ــ الانتخاب	élections
ــ البرلمان	Parlements
ــ تعدد الأحزاب	Pluralisme des partis
ــ استقلال القضاء	indépendance des juges
ــ والحريات العامة	Libertés publiques

والأمر الذى من شأنه أن يجعل للمواطنين استقلالا كبيرا ووسائل ذات فاعلية للضغط على الحكومة •

Pression sur le gouvernant

---

(١٥) لدكتور عبد الحميد متولى : القانون الدستورى والانظمة السياسية ــ دار المعارف الطبعة الثانية ــ ١٩٦٣ ــ ص ٢٣١ •

17 — M. Duverger : Institution politiques — Tom 1 press universitaire de France 1973. p. 42.

(ب) المعنى الاقتصادى الليبرالية :

فالليبرالية تعتبر مرادفة للفظة الرأسمالية وفيها تكـون أدوات الانتاج مملوكه ملكية خاصة للأفراد من صناع وتجار ومســـتغلين زراعيين ويكون لكل منهم حرية انشاء المشروعات وادارتهـــا حسب مشيئته وأن يبيع ويتداول منتجاته طبقا لقوانين السوق والمنافســـة وهذا معناه أن لاقتصر المواطنين على حيازة السلطة السياسية ولـكن يشاركون كذلك فى القوى الاقتصادية • بحيث يضغط الناخبون عـــلى القوى الاقتصادية فان اتخاذ القرارات السياسية يتم فى اطار البرمجة المتوازية للقوى الناشئة من اقتران العنصرين السياسى والاقتصـــادى وهذا من شأنه أن يجعل هذا النظام من قبيل الباوتوقراطية لأن السلطة ترتكز فى وقت واحد على الشعب والثروة (١٧) •

ويقوم النظام الليبرالى على ثلاثة عناصر أساسية هى (١٨) :

١ — اقامة الحكومة بناء على الانتخاب العام

La désignation des gouvernant par des élections au suffrage universel.

٢ — وجود برلـــان يمارس سلطات واسعة

L'existence d'un parlement ayant de larges pouvoirs.

---

17 — M. Duverger : Op. cit. — P. 43.

«Les décisions politiques sont prises dans le cadre du parallélogramme de forces résultant de la combinaison de ses facteurs. Ainsi le modile démocratique est en réalité un modile». «Ploutodemocratique», puisque le pouvoir y repose à la fats sur le peuple (demos) et sur la richesse (Ploutos).

٣ ــ تدرج فى النظم القانونية التى تتضمن اشراف علنى نافذ يقوم به قضـــاة مســـتقلون

une hiérarchie des normes Judiriques assurant un contrôle des autorites publiques par des Juges indépendantss.

ــ والمؤسسات التى تقوم فى النظام الليبرالى لها غرض معين هو منع تزايد السلطة السياسية لأجل الحفاظ على حـــريات المواطنين •

empêcher que le pouvoir politique le sait trop fort, à fin de préserver les libertés des citoyens.

ــ وتمثيل الشعب عن طريق الانتخابات يسمح بأن يقوم الشعب باقامة الحـــكومة •

La représentation populaire par les élections permet aux citoyens des pouvoirs

ــ ويؤدى الفصل بين السلطات الى أن تراقب كل سلطة على الأخرى •

fait contrôler chaque cryane gouvernemental par l'autre.

انه كما قال مونتسيكو ــ السلطة هى التى تحد السلطة

Le pouvoir limite le pouvoire"

Le principe de légalité ــ ويؤدى مبدأ المشروعية

وتدرج النظم القانونية الى تأكيد السلطات الحاكمة فى كل درجـــة واعطاء المحكومين فرصة معارضة التصرفات غير المشروعة

donnent aux gouvernant les moyens de s'opposer aux actes illégaux.

ومن الممكن تعريف الدولة الليبرالية بأنها : الدولة ذات النظـام السياسى الذى يحقق ويؤمن الوجود المزدوج لكل من الحرية المستقلة والحرية المساهمة :

(أ) الحرية المستقلة : la liberté-autonomie

هى تلك التى يمنع بها الفرد تدخل الجماعة فى شئونه الخاصة ، فهى دفع فى مواجهة الجماعة لحمايته ضد اقتحامها لشخصيته •

وهى فى الغالب نوع من الحريات السياسية والمدنية ومثالها حرية العقيدة والفكر متى لم يتخذا مظهرا خارجيا وحرية العاطفة والكرامة وحرمة المسكن والحياة الأسرية والحرية الشخصية وحـرية الارادة والذمة المـالية والادخار والملكية الخاصة •

(ب) الحرية المساهمة : la liberté-participation

هى التى يستعملها الفرد بواسطة المجتمع ويحتاج فيها الى غيره وذلك كحرية تكوين الأحزاب والنقابات والجمعيات وحـــرية الرأى وحرية الانتخاب وكذا الحريات الاجتماعية والاقتصادية كحرية العمل والتجارة والتأمين الاجتماعى وحرية التعليم •

وعلى الرغم من ثبـات هـذا التعريف الا أن الدكتور مصطفى كمال (١٩) أخذ عليه أنه يجمع بين نوعية من الحرية يمكن أن يتعارضا، فان النظام الذى يقوم على الحرية المستقلة لا يمكن الا أن يكون فرديا، بينما تتصادم حرية المساهمة مع الحرية المستقلة وتخالفها •

---

(١٩) الدكتور مصـطفى كمال وصـــفى : الديمقراطية الليبرالية والاشتراكية ـ بدون دار نشر ١٩٨١ ـ ص ١٦ •

وفي الوقت الذي تجتمع فيه الحرية المستقلة والحرية المساهمة توجد الايديولوجية الليبرالية • فهي تهدف الى تحقيق أقصى ما يمكن من الاستقلال الشخصي للمحكومين مع دعوتهم الى المساهمة فى القيام بالأعمال العامة •

والايديولوجية الليبرالية لا تنصرف الى دولة بعينها تعرف بالدولة الليبرالية وانما عرفت مجموعة من الدول تعتنق الايديولوجية الليبرالية وهذه الدول تتمايز فيما بينها من أمور عدة •

ويقول الفقيه الكبير جورج بيردو (١) G. Burdeau «الليبرالية» روح لا تتوقف حيويتها على وجود نمط معين من أنماط النظم السياسية وينتج من ذلك أن الليبرالية ليست محصورة فى الدولة الليبرالية وأن هذا النوع من الدولة لا يمكن أن تدعى أنها التجسيد الوحيد لليبرالية• ولعل هذا يفسر لنا تسرب المبادىء الليبرالية للدول غير الليبرالية وعدولها عن نظامها الأول الى نظام هو خليط المزج بين ذلك النظام والليبرالية ، كما يفسر لنا اعتماد دساتير مختلف الدول للوسائل الليبرالية ولو لم يكن نظامها ليبراليا • فان النظام الليبرالى مريح حيث انه يترك للأفراد حرية العمل ويسوغ للدولة أن تتركهم وما يعملون ، كما أن أدواته — من انتخاب وبرلمان ونحو ذلك — هى أدوات أصبحت مألوفة سهلة التشغيل » •

والليبرالية كايديولوجية سياسية خاصة من البديهيات المسلم بها ان الايديولوجيات السياسية تكتسب معان منظورة — وأحيانا مختلفة — فى كل عصر نتيجة للتطورات الاقتصادية والسياسية التى تطرأ على بنية المجتمع وعلى علاقات القوى فيه •

G. Budeau : Traité de Science politique — Tom VI vol. p. 7 Art. 2.

فمثلا بالنسبة لليبرالية لم يعد مغزاها قاصرا على تلك الأفكار والمبادىء التى أرساها جيريمى بنتام عن نظرية المنفعة وعن الاحساس بالسعادة والألم بصفتهما القوتان الدافعتان للفرد •

كما أنها تجاوزت أيضا محاولات جون ستيوارت ميل لاعادة بناء تلك النظرية والتى ضمنها فى كتابه عن « الحرية » وفى كتابه « الحكومة النيابية » •

يمكن ادراك المفهوم السائد اليوم لليبرالية كايديولوجيةسياسية اذا أدخلنا فى اعتبارنا أن هذا المصطلح يستخدم لتعبير عن معنيين بينهما بعض التطابق :

أولهما : معنى ضيق وذو طبيعة محددة •

والثانى : ذو طبيعة عامة •

وتعنى الليبرالية فى معناها الضيق : وضعا سياسيا وسطا بين الرجعية والاشتراكية يحبذ الوسائل الاصطلاحية فقط وليس الثورية•

واصطلاح الليبرالية بهذا الشكل يلائم نظرة الطبقة الوسطى وليس الارستقراطية ذات المصلحة فى المحافظة على الأوضاع القائمة أو الطبقة العاملة التى تحاول القضاء على الرأسمالية والحلول محلها فى الحكم •

ويصف الماركسيون الليبرالية بأنها نظرية سياسية تهدف الى استعادة أساليب أقرب ما تكون الى تقاليد المنافسة التى كانت سائدة فى بداية النظام الرأسمالى •

---

(٢٠) دكتور محمد محمود ربيع : الايدلوجيات السياسية المعاصرة الكويت ـ شركة كاظمة للنشر ١٩٧٩ ص ١٩٠ •

أما الليبرالية فى معناها العام تستخدم كناية عن «الديمقراطية» بمفهومها الرأسمالى وضد الشيوعية والفاشية وعلى المستوى السياسى تعنى الليبرالية المحافظة على المبادىء العامة للحكومة مثل الاقتـــراع والمجالس النيابية والهيئات التنفيذية المسئولة أمام هيئة الناخبين(★)•

غير أن السلطة السياسية فى النظم الليبرالية كثيرا ما تتعـرض لضغوط القوى الاقتصادية فيكون للمشرعات الرأسمالية الكبرى سلطة فى مواجهة المؤسســات التى قامت بالانتخاب وتكون ممارســة الشعب للحرية على أساس ما يملك الفرد من الامكانيات المــادية ، اذ لم تعد هذه الحريات شكلية كما كانت فى القرن التاسع عشر •

والأصل من النظام الليبرالى أن القاعدة هى أن الشــعب يراقب ولا يحكم

Le peuple contrôle, mais ne gouverne pas.

وبذلك لا يكون للشعب ارادة أخرى سوى الارادة الرسمية التى تبرمها السلطة الحاكمة باسم الشعب (٢١) •

ولا شك أن الايدلوجية الليبرالية قد وضعت حــدا لعهــد الحكومات الشخصية والمطلقة على الأقل فى البلاد الأوربيــة ، رغم الانتقادات التى يمكن أن توجه اليها •

★ George Sab'n : op. cit. p. 740.

21) Burdeau : Traité de Science politique — Tom V — 2 ed. 1970 — p. 588.

المبحث الثالث

الايديولوجية الماركســـية

الايديولوجية الماركسية :

وهذه تنسب الى كارل ماركس (١) وصديقه فريدريك انجلز .

ويذهب الماركسيون الى حد القول بأن الماركسية هى التعبـــير العلمى الوحيد عن الاشتراكية كلها .

وتتكون الايديولوجية الماركسية من ثلاثة أجزاء (٢) :

١ — فهى جدلية فى بحثها وطريقة اعتبارها وتعلقها لظواهـــر الطبيعـــة .

٢ — وهى مادية فى تفسيرها وتفهمها لهذه الظواهر .

٣ — وأخيرا فانها مادية تاريخية بتطبيقها مبادىء الفلسفة الجدلية المـادية على الحياة الاجتماعية بمختلف مظاهرها وعلى دراســـة المجتمعات وتاريخها .

وتعرف الايديولوجية الماركسية بأنها النظام التى يقوم عـــلى مذهبية حاكمة ذات سلطة مغلقة ، مستعينا بأدوات ذات شكلديمقراطى ويجرى تنفيذه بالوسائل الاشتراكية .

ويعرفها أساطين القانون العام أمثال جورج بيردو
les Monocraties / populaires

كما يطلق عليها ديفرجيه les dictatures / So cialistes
الديكتاتورية الشعبية .

---

(١) ولد ماركس فى المانيا الغربية فى مايو ١٨١٨ وتوفى عام ١٨٨٣ وهو يهودى الاصل ثم تحولت عائلته كلها للمسيحية فى عام ١٨٢٤ .

(٢) الدكتور احمد جامع : المذاهب لاشتراكية ـ المطبعة العالمية ١٩٦٧ ـ ص ١٧٤ .

وتقوم الايديولوجية المـاركسية على العناصر الآتية :

١ ــ انها نظام حاكم ذو سلطة مغلقة :

ويقوم هذا النوع من النظام فى العصر الحديث فى الاتحـــاد السوفيتى والصين الشعبية ودول شرق أوربا حيث يرتكز هذا النظام فى فكرة قانونية رسمية وهى الماركسية وبحيث تعلق على مذهبيـــة واحـــدة •

وبسبب أن النظام الحاكم ذو السلطة المغلقة تعبير عن الفلسـفة السياسية للماركسية الستالينية ، فان نظام العمل الدستورى يتوجـه لخدمة مذهبية القابضين على السلطة وتكون السلطة فيه مجهزة بصورة لا تسمح بأن يكون للنظم السياسية الأخرى فرصة للتـدخل فى ادارة الدولة ولا يكون لها دستوريا حق المعارضة (٣) •

٢ ــ انها نظـام مذهبى بالضرورة : بسـبب انه نظام حاكم ذو سلطة مغلقة أى تسيطر عليه مذهبية موصوفة لا سبيل الى تعديلها •

وهذه الأنظمة ترتكز بصفة عامة على المذهبية الماركسية الملحدة ولكن تفسـير هذه المذهبية يختلف الاتحاد السـوفيتى عنه فى الصين وفى يوغوسلافيا كما أنه توجد مذهبيات لاشتراكيات غير ماركسية ولـكن الماركسية هى المعتمدة فى التطبيق فى معظم البلاد الاشتراكية •

---

3 — Burdeau : Traité de science politique — T.V. L. G. D. J. 1970 — P. 621

Le régime du pouvoir clos est celui dans lequel tous les mécanismes constitutionnels sont destinés à servir l'idéologie des hommes qui détiennent le pouvoir et sont aménagés de telle sorte que, seulement, les conceptions politiques contraires n'ont aucune chance d'accélérer par les voies légales à la direction de l'état, mais, encore ne sont pas constitutionnellement autorisées à faire entendre leur opposition.

وهذا النوع من النظم يتميز بمذهبيته الاجتماعية الاقتصادية وهى ترتكز على الملك الجماعى لوسائل الانتاج الذى يوضع بين يدى الدولة والوحدات المحلية والتعاونية مع ملاحظه أن الدستور الصينى الجديد الذى وافق عليه المجلس الوطنى لنواب الشعب فى ٤ ديسمبر ١٩٨٢ فى المادة الثانية على أن الأفكار المرشدة لجمهورية الصين الشعبية هى الماركسية اللينينية — أفكار ماوتسى تونج •

وتنص الفقرة الثانية من المادة ٦ من دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفتية الصادر فى ٧ أكتوبر ١٩٧٧ على أن « يحدد الحزب الشيوعى المسلح بالتعاليم الماركسية اللينينية •

٣ — انها ذات بناء سياسى واقتصادى خاص :

السمة الأساسية للبناء السياسى فى الدول الماركسية هو التضخم المضطرد للسلطة وبلغ ذلك مداه فى الاتحاد السوفيتى أيام ستالين ولكن بعد موته ومنذ المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى بدأ صحو قانونى بقيادة خروشوف لكشف هذه المآسى (٤) •

وظاهر السلطة المطلقة Omnipotence التى تتمتع بها الحكومة فى النظام الديمقراطى الاشتراكى تظاهرها الحالة الوحدوية أو الشمولية Totalitarism التى تقوم فى المجتمع الاشتراكى ويقصد بحالة الشمولية تلك التى تكون فيها جميع صور الحياة المادية والروحية — خاضعة لاشراف الدولة بلا حدود •

وفى الدول الماركسية سيطرت الدولة على الاقتصاد بحيث صتير الدولة هى السيدة المطلقة فى جميع شئون الوجود المادى

---

(٤) أستاذنا الدكتور مصطفى ابو زيد فهمى : فى الحرية والاشتراكية والوحدة — دار المعارف ١٩٦٦ — ومؤلف سيادته نظرية الدولة — منشأة المعارف ١٩٨٦ حيث شرح باستفاضة ذلك الموضوع •

للانسان فى المجتمع ويكون المجتمع شموليا اذا كان خاضعا للسيطرة الكلية ماديا وعقائديا فانه منذ آن يفترض أن المجتمع قد صار طبقة واحدة وهى الطبقة الثورية أو صار مجتمعا واحدا بلا طبقات .

وتنص مقدمة دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الصادر فى ٧ أكتوبر ١٩٧٧ على أن : « الهدف الاسمى للدولة السوفيتية هو بناء المجتمع الشيوعى اللاطبقى الذى تتطور فيه الادارة الذاتية الاجتماعية الشيوعية » .

ـ وعند الماركسيين تقوم نظرية الدولة على اساس وتحرك من النشوء والارتقاء فالدولة والسلطة السياسية عندهم هى مجموعة الوسائل التى تتخذ للسيطرة والضغط على الانسان .

ـ الايدلوجيه الماركسية اخذت بنظام الحزب الواحد ولا يسمح بقيام حزب آخر من ذلك ما ينص عليه دستور الاتحاد السوفيتى فى المادة ٦ :

« القوة القائدة والموجهة للمجتمع السوفيتى ونواة نطاقه السياسى ومؤسسات الدولة المنظمات الاجتماعية هى الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى ويحدد الحزب الشيوعى المسلح بالتعاليم الماركسية اللينينية الافق العام لتطور المجتمع وخطط السياسه ويقود النشاط ويضفى على نظامه من أجل انتصار الشيوعية طابعا منتظما ومعللا تعليلا علميا .

ـ تستخدم النظم الماركسية ادوات دستورية تشبه ادوات النظام الليبرالى بالاعتماد على الانتخاب العام وقيام برلمان ودستور واعلانات حقوق تتحدث عن آرائه الفردية ولكن هذه الأدوات يعيبها انها أدوات شكلية للدعاية الشيوعية وليست أدوات دستورية حقيقية .

ـ وبمقارنة النظم فى الايدلوجية الليبرالية بالنظم فى الايدلوجية الماركسية نجد ان النظم الليبرالية تنشىء سلطات سياسية ضعيفة

نسبيا وهى أقوى بكثير مما فى النظم الماركسية وهذا من شأنه ان يعطى الأفراد فى النظـام الليبرالى حيزا من الحرية أكبر ممـا فى النظـام المـاركسى ولكنه أيضا يجعل السلطة السياسية أكثر تعرضا لضغط القوى الاقتصادية ممايسمح بقيام البلوتوقراطية ploutodémocratie السابقة ذكرها فيكون للمشروعات الرأسمالية الكبرى سلطة فى مواجهة التشكيلات التى قامت بالانتخاب وتكون ممارسة الشعب للحرية على اساس ما يملك الفـرد من الامكانيات المادية اذ لم تعد هذه الحريات شكلية كما كانت فى القرن التاسع عشر (٥) .

---

5 — Duverger : Op. cit. p. 68.

Les institutions libérales établissent ainsi un pouvoir politique relatvement faible beaucoup plus facile en tout cas que le pouvoir fonctionnant dans les dictatures socialistes ou dans les régimes conservateurs. Cela donne aux citoyens une marge de libertés plus grande, qui est certainement l'avantage essentiel des régimes occidentaux. Mais cela rend aussi le pouvoir politique plus vulnérable à la pression des pouvoirs économiques, lesquels ne sont pas organisés de façon démocratique. Rappelons que les démocraties occidentales sont des «Pluto - démocraties» ou le pouvoir réel repose à la fois sur le peuple par l'élection, et sur l'argent. Les grandes firmes capitalistes ont une puissance dans l'état, en face des organes issus de l'élection. Dans les classes populaires, bien que ces libertés ne soient plus aujourd'hui purement formelles, comme elles l'étaient au XIX siècle.

المبحث الرابع

الايديولوجية الاسلامية

ان أية محـــاولة علمية جادة لنقل الحقيقة من المعرفة النظرية الى حالة الحركة الاجتماعية هى ضرب من ضروب الايديولوجيا فالايديولوجيا هى استعمال العقيدة كوسيلة للتغيير الاجتماعى لا لمجموعة حجج للاقناع المنطقى ، واذا كانت اعظم فضيلة للسلاح هى حدته فان اعظـــم ميزة للايديولوجيا هى مضاؤها •

فجوهر الايدلوجيا اذن « وظيفى » بحت ، ولكن كيف يمكن ان يتحقق للعقيدة اداء وظيفتها الاجتماعية ؟ أى كيف يمكن ان تصـــبح أيدلوجيا ؟ ان ذلك لا يكون الا بان تستخلص من نظام الافكار والمفاهيم ونظام القيم بناء على معرفة علمية دقيقة ــ مجموعة من القواعد العملية فى الاخلاق والتربية السياسية •

ولم يكن الاسلام فى تاريخه مذهبا فلسفيا او تيارا ثقافيا بل كان دائما حركة اجتماعية • ولم تكن العقيدة الاسلامية يوما ما ثقافة نظرية بل هى ثقافة حية أى ان الدين الاسلامى يؤدى وظيفة اجتماعية •

هذه هى خصائص ثابته للايدلوجية الاسلامية وهى بمثابة الصفات التى تحدد ماهيتها بصرف النظر عن الحقيقة التاريخية المعاصرة لها أو عن الرقعة الجغرافية المنتشرة بها أو عن طبيعة المجتمع الذى تمارس نشاطها فيه لانها خصائص لازمة من طبيعة الاسلام نفسه ومن السيرة النبوية الشريفة ومن واقع الاسلام التاريخى فى عصره الأول •

---

(١) علال الهاشمى الخيارى : الاسلام وايديولوجيات الفكر المعاصر الدار التونسية للنشر ــ الطبعة الثانية ١٩٨٤ •

وبذلك فليس من حقنا ولا بامكاننا ان نتحكم بهذه الخصائص بتغييرها أو تعديلها أو تبطل احداها وكل ما نستطيعه هو أن نذكر بها وأن نفسرها ونشرحها .

فالايدلوجية الاسلامية لها سمات عامة منها :

أولا : أنها من عند الله وليس وضعيا أى أن الحقيقة فى الاسلام تستمد من « الوحى » المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن والسنة الشريفة .

ثانيا : ان نظام القيم فى الاسلام يستمد من نفس المصدر الذى تحقق فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام كان خلقه القرآن ويعبر عنه بنفس المصطلحات التى كانت فى عهد الرسول فما هو على مستوى الانسان « خير » و « شر » وعلى مستوى الفرد فى المجتمع « نافع » و « ضار » وعلى مستوى المواطن فى الدولة « الزام » و « التزام » هو عندنا « معروف » و « منكر » و « حلال » و « حرام » و « حكم شرعى » و « حدود الله » .

ثالثا : خارج نطاق المفاهيم والقيم لا يلزمنا الاسلام بشىء **فالاسلام دين يسر** .. فتعاملنا مع الاشياء مفتوح الى ابعد المجالات ومن هنا نحن منفتحون على « العلم » بكل افاقه ، وعلى الصناعات الحديثة بكل فوائدها .. وعلى التقدم الاجتماعى والاقتصادى بكل ابعاده .

رابعا : تؤكد الايديولوجية الاسلامية على أهمية الحياة الدنيا كجسر الى الآخرة والى الانسان كمعبر بين البداية والنهاية .

خامسا : الايدلوجية الاسلامية فى نظرتها الى المجتمع لا تعتبر « الفرد » كل شىء ــ كالمذهب الليبرالى « الفردى » أو لا شىء كالمذهب الماركسى « الجماعى » **بل الايديولوجية الاسلامية توسط الانسان وتؤمن**

بان « الفرد من المجموع والمجموع من الفرد » ونؤمن بان « الفرد للمجموع والمجموع للفرد » .

فالايدلوجية الاسلامية لا تكون نظرتها نتيجة « ردود افعال » تنعكس من حركة اجتماعية « يضع » بعرض مفكريها لمذهبا لفهم الفرد بل تستند الى « حكم ثابت » يستند بدوره الى نظرية ثابته فى الفرد مستمد من حقيقة اصلها ثابت وفرعها فى السماء .

سادسا : الايدلوجية الاسلامية لا تنظر الى التاريخ على انه لا شيء كالبوذية ـ او انه مقر ـ سلفا ـ كالنصرانية .. بل ان الايدلوجية الاسلامية فى مجال التاريخ ترى انه من صنع الانسان .. فهو فهم **ولكن تحكمه سنن الله العامة فى الخلق** ، والترف ، الانهيار ، النشوء .... الخ .

سابعا : الايدلوجية الاسلامية فى نظرتها الى السياسة لا تقوم على اخلاق القوة كالرومان ـ أو اخلاق الضعف كالمسيحية أو اللا اخلاقية كالميكافيلية أو الصراع الطبقى كالماركسية .

بل ان الاديولوجية الاسلامية فى نظرتها للسياسة تقوم على الحق المدعوم بالقوة المؤيد للحرية .

ثامنا : الايدلوجية الاسلامية ايدلوجية القيم الاخلاقية :

وهى فى هذا على نوعين من القيم :

أ ـ قيم عامة تدخل بها الايدلوجية الاسلامية المجتمع البشرى .

ب ـ قيم خاصة تلتزم بها الايدلوجية الاسلامية فى المجتمع الاسلامى .

« أ » ــ القيم العامة فهى ثلاثة :

١ ــ وحدة النوع البشرى فى أصله ومصيره « العدل » .
٢ ــ حق الحياة للفرد وللمجتمع البشرى « اسلام » .
٣ ــ الكرامة الانسانية « الحرية » .

« ب » ــ اما القيم الخاصة فهى ثلاثة ايضا :

١ ــ وحدة الله لا اله الا الله محمد رسول الله وحده الدين وحدة الامه .

٢ ــ الاخوة الاسلامية المؤاخاة كمبدأ اجتماعى صورته الاقتصادية التكافل الاجتماعى ، صورته السياسية الشورى والبيعة .

٣ ــ الجهاد ايمانا بضرورة تبليغ الدعوة وضرورة حماية دولتها وواجب حماية القيم العامة .

تاسعا : الايديولوجية الاسلامية ايديولوجية عالمية تستمد خصائصها العالمية من مفهوم الاسلام كدين الله للانسانية كلها عبر اطوار التاريخ ويستمد من مفهوم «الأمة» التى تجمع شعوبها العقيدة الواحدة لا جنس هذه الشعوب ولا لغاتها ولا الوانها وتستمد هذه الخاصية من الواقع التاريخى الذى اثبت خاصية الانفتاح «على الأديان والاقوام والألوان والتأمل فى القيم السابق ذكرها » .

وحمل الاسلام الى العالم عن طريق المسلمين فرادى وجماعات بشرط الوحى الاسلامى للمشكلات الاسلامية المعاصرة ويربط مصير الفرد بمصير الحركة الاسلامية .

لانه لابد ان تصطبغ الايدلوجية الاسلامية بالصبغة السياسية لامة بامكاننا ان نقول بصفة عامة ان ما فقده الاسلام منذ بداية الغزو

الأوربى الحديث هو نظامه السياسى ، وأنه منذ فقد نظامه السياسى بدأت عمليات تدميره الثقافى .. ويمكننا القول بكل بساطة « انه لا يمكن حل أية مشكلة أسلامية حلا اسلاميا الا فى ظل نظام اسلامى » فلما لم تصبح الايديولوجية الإسلامية ذات صبغة سياسية فلا يمكن ذلك.

ولقد لوحظ ان الليبرالية العلمانية عملت على تغريب المفاهيم الاسلامية والسياسية فاثارت فى جملة ما اثارته من قضايا قضية الدين والدولة أو الاسلام والسياسة وبدأت سلسلة طويلة من الاصطلاحات فى لغتنا العربية لم تكن مألوفة فى الفكر الاسلامى مثل « الشرعى والمدنى» والشريعة والقانون«والمحاكم الشرعية والمحاكم المدنية»والتعليم الازهرى والتعليم العادى . وهى تدل جميعا من خلال صياغتها على فكرة فصل الدين عن الدولة المأخوذة عن فصل الكنيسة عن الدولة فى أوربا ــ مع الزمن بدأنا نستعمل كلمة الاسلام والسياسة «بل السياسة فى الاسلام » أو « السياسة الشرعية » وحلت محل « الخلافة الاسلامية كلمة « الدولة الاسلامية » وقصد بها الدولة التى سكانها مسلمون ومنها انتقلنا الى دولة دينها الاسلام ثم « دولة علمانية » ومن دولة الشريعة الاسلامية مصدر رئيسى للتشريع الى دولة أن الشريعة الاسلامية المصدر الرئيسى للتشريع (١) .

ولما كان ما نص عليه الدستور فى المادة الثانية منه من أن الشريعة الاسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ، ليس واجب الاعمال بذاته وانما هو دعوة للمشرع بأن تكون الشريعة الاسلامية المصدر الرئيسى فيما

---

(١) محكمة النقض الدائرة الجنائية ٢٣ يناير ١٩٨٢م ــ الطعن ٢٣٧٠ لسنة ٥١ق مشور بمجلة المحاماة العددان ٣ ، ٤ ــ السنة ٦٢ ــ الحكم رقم ٦ ــ ص ٧٧ .

يشرعه من قوانين ومن ثم فان المناط فى تطبيق أحكـــام الشريعـة الاسلامية استجابة الشارع لدعوته وافراغ مبادئها السمحاء فى نصوص محددة ومنضبطه يلتزم القضاء بالحكم بمقتضاها بدءا من التاريخ الذى تحدده السلطة التشريعية لسريانها ..

والقول بغـير ذلك يؤدى الى الخلط بين التزام القضـاء بتطبيق القانون الوضعى وبين اشتراع القواعد القانونية التى تتأبى مع حدود ولايته فضلا عن ان تطبيق الشريعة الاسلامية يقتضى تحديد المعـين الذى يستقى منه الحكم الشرعى من بين مذاهب الائمة المتعددة والمتباينة فى القضية الشرعية الواحدة ويؤكد هذا النظر انه لما كان الدســـتور قد حدد السـلطات الدستورية وأوضـح اختصـاص كل منهـا وكان الفصل بين السلطات هو قوائم النظام الدستورى بما لازمه أنه لا جوز لاحداها ان تجاوز ما قرره الدستور باعتباره القانون الاســمى وكان من المقرر وفقا لاحكامه ان وظيفة السلطة القضائية ان تطبق القـانون وتختص محكمة النقض بالسهر على صحة تطبيقـــه فانه يتعين على السلطة القضائية وغيرها من السلطات النزول على احكامه .

وفضلا عن ذلك فان المادة ١٩١ من الدستور تنص على انه « كل ما قررته القوانين واللوائح من احكام قبل صدور هذا الدستور يبقى صحيحا ونافذا . ومع ذلك يجوز الغائها او تعديلها وفقا للقـــواعد والاجراءات المقررة فى هذا الدستور .

هذا هو تقنين الشريعة الاسلامية فى مصر بعد صدور الدســتور الحالى عام ١٩٧١ ان اتخذ مجلس الشعب قرارا فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٧٨ بالبدء فى تقنين الشريعة وفى ١٩٨٢/٧/١ وتم تقنين عـــدة تشريعات هى :

١ ــ مشروع قانون المعاملات المدنية ويقع فى أكثر من ١٠٠٠ مادة

٢ — مشروع قانون الاثبات ويقع فى ١٨١ مادة .

٣ — مشروع قانون التقاضى ويقع فى ٥١٣ مادة .

٤ — مشروع قانون العقوبات والقسم العام والحدود التعزيزات ويقع فى ٦٣٥ مادة .

٥ — مشروع قانون التجارة البحرية ويقع فى ٤٤٣ مادة .

٦ — مشروع قانون التجارة ويقع فى ٧٧٦ مادة .

وقال رئيس مجلس الشعب حينذاك فى نهاية كلمته ان هذا العمل التاريخى مازال بحاجة الى جهد جهيد يتعين ان يسعى اليه كل الذين يريدون للشريعة الازدهار كل فى مجال تخصصه وهذا يقتضينا ان نبدأ منذ الآن بما يأتى (١) :

١ — تهيئة المناخ الاجتماعى لقبول التقنينات الجديدة ويكون ذلك عن طريق وسائل الاعلام المتعددة وعقد جلسات استطلاع فى الموضوعات التى جدت فى المجتمع بعد قفل باب الاجتهاد وتبينت اللجنة بعض الاراء فيها مثل اعمال البنوك ونظم التأمين ونظم استثمار الاموال .

٢ — يتعين تنظيم دورات تدريبيه حتى ينفسح المجال امام القضاء لدراسة واستيعاب التشريعات الجديدة .

٣ — يتعين تغيير برامج كليات الحقوق فى الجامعات المصرية بما يتمشى مع التقنينات الجديدة .

هذا ولم تتخذ منذ ذلك الحين اية خطوات اخرى لكى توضع هذه المشروعات موضع التطبيق بدلا من ان تقول محكمة النقض فى حكمها السابق ان مناط تطبيق احكام الشريعة الاسلامية استجابة الشـــارع لدعوته وافراغها فى نصوص .

---

١ — مضبطة مجلس الشعب الجلسة السبعين أول يوليو ١٩٨٢م ص ٣٤ .

وعلى هذا وقبل الصياغة النهائية لتشريعاتنا الاسلامية يجب ان تظل الايديولوجية الاسلامية متميزة فى فكرها وعملها معا •

والتمييز فى الفهم بحيث لا يكون الفكر الاسلامى فكرا توفيقيا ولا الرأى الاسلامى رأيا متأرجحا بل ان يكون فكر الحركة الاسلامية واضحا لا يشوبه غموض ورأيها صريحا لا لبس فيه •

وعلى الذين يليهيهم يومهم عن امسهم عن غدهم ، والذين يحسبون ان الدنيا لم تخلق الا لهم • مطالبون ان يتذكروا ان التاريخ صفحات تتكرر وان خيرا فخير وان شرا فشر ، مطالبون بأن يرجعوا البصر مرات ليشهدوا اثار الفكر الدينى على عالمهم المعاصر وان يتذكروا الموتى يحكمون الاحياء من بعدهم•

ان النظم الاسلامية ليست انعزالية بفطرتها • وهؤلاء الذين يجسدون تلك العزلة • وانما يقعون فى خطأ كبير • مهما كانت الدوافع • ومهما حسنت النوايا • وبديهى ان النظم الحية لابد ان تتفاعل •• نعم •• تتفاعل مع احداث العصر • ومنجزات العلم • ومع التغيرات الاجتماعية والبيئية ويرصدها بوعى • ويقف معها فى مواجهتها ، أى يحدد موقفه منها على ضوء المعطيات الحضارية الاسلامية لان الموقف الانعزالى موت والذوبان فى خضم الغزو الثقافى فناء ، واللامبالاة بما يجرى ضياع واهدار لفاعلية العقيدة • ذلك الضوء الكاشف الذى يمدنا بالقدرة على الرؤية الصحيحة والتحليل الناجح والذى يمدنا بالروافد الضرورية لتحديد المواقف •

ان انحسار المد الاسلامى فى مجال النظم السياسية لا يعنى ذهاب القيم ، لان تلك القيم فى واقع الامر ليست تراثا بل حياة دائمة مرتبطة بالحكام والمحكومين فى بقاع العالم الاسلامى وتعبر بصدق وقوة وامانة عن رجل التوحيد •• وعن أمة التوحيد وعن الامال التى

تتحقق فى قلب ألف مليون مسلم • مازالت غالبيتهم تنهل من الينابيع الصافية التى تتدفق عبر الزمان بالخير والعطاء والذين يتنكرون لهذه الحقائق من المؤرخين والمحللين السياسيين وفقهاء السياسة انما يتورطون فى خطأ تاريخى فادح ، ويجافون العدل ويظلمون الواقع •

واذا كانت الحضارة فكرا وممارسة ، أو عقيدة وعملا والتزاما فأن مسئولية فقيه النظم السياسية اخطر بكثير مما يتصور البعض واذا كنا قد قررنا ان الفصل بين النظم الاسلامية والنظم المعاصرة خطأ جسيم ، وخروج عن منطق الممارسة والعلم ، فاننا نقول ايضا ان النظم الاسلامية جزء لا يتجزأ عن الواقع وحركة الحياة والعمل الدائب ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون •

فالفكر الدفاعى هو مرحلة طبيعية تمر بها الأمة فى معركة تحقيق الذات حضاريا بالايديولوجية الاسلامية والدلالة على أن ما تمتلكه من المقومات لا يقل عما تمتلكه الأمم الأخرى فى المجال الانسانى • كما أنه ينعجم من واقع الحياة المتطورة ولا يتخلف عنها • وهو سلاح الأمة الوحيد تشهره فى وجه أعدائها لتدافع عن وجودها الثقافى وتثبت به هيتها • وتبرز ذاتيتها • وتعلن استقلاليتها وتخلص أبناءها مما يمكن أن يترسب فى نفوسهم من عقد النقص نتيجة للهزائم الداخلية فى مرحلة الخضوع للاستعمار • والمناخ الذى يخلفه افتتان المغلوب المتخلف بالغالب المتقدم • خاصة عندما تكون مهمة الغالب وبغيته تذويب الأمة واغتيال وجودها التاريخى ، والقضاء على معالم أفكارها •

لذا نحن بحاجة دائمة الى حراسات متيقظة ترابط فى الواقع الحضارية للامة ، بضمان سلامتها وحفظ ثقافتها ورد كيد المبطلين عنها •

---

(١) الدكتور / على عبد الحليم محمود : الغزو الفكرى واثره فى المجتمع الاسلامى المعاصر ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٧٩ ص ٢٩ •

فالاسلام فى صيغته المحمدية لا يدعو الى ليبرالية أو غيرها وانما يدعو الى نفسه الى الاسلام أى يدعو الناس الى الدخول فى السلم كافة • ولا مناص من وضع الايديولوجية الاسلامية فى اطارها الحقيقى فى قيادة وهداية البشرية •

ولا شك أن تطبيق الايديولوجية الاسلامية هو الجدير باستعادة مكانة الأمة الاسلامية لا لتكون فى مستوى العصر ، ولكن فى مستوى قيادة العصر « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (١) •

وبعد :

فانه لا شك أن لكل نظام سياسى يستهدف من الايديولوجية المتبناة أهدافا معلنة وأهدافا أخرى غير معلنة وأيضا فان الايديولوجية لها دور هام فى الصراع من أجل السيطرة على عقل وفكر الجماعات والشعوب ليس فقط من أجل كسب حرب نفسية تدور حول مشكلة معينة وانما للضغط على الحكومات أو للترويج لتيار فكرى معين • ويرى Roucek ان الثورة المذهلة فى وسائل الاتصال قد مارست تحديا لا يقاوم لكثير من التقاليد الراسخة وقلبت بعض العقائد والمسلمات رأسا على عقب وأضفت طابعا ايدلوجيا فريدا على الصراع الثقافى بين الحضارات المتنافسة بحيث لم تعد هناك أية منظومة فكرية أو عقيدة بمنأى عن النزعات الايديولوجية الراهنة •

---

(١) علال الهاشمى الخيارى : الاسلام وايديولوجيات الفكر المعاصر ـ الدار التونسية للنشر الطبعة الثانية ١٩٨٤ ـ ص ٢٦٩ •